فتنة القبور وما يقع عندها من الشرك

قال المؤلف رحمه الله: فصل: في بيان ما وقع فيه العامة اليوم وما يفعلون عند القبور، وما يرتكبونه من الشرك الصريح والغلو المفرط في الأموات: ومن على القبر سراجا أوقدا أو ابتنى على الضريح مسجدا فإنه مجدد جهارا لسنن اليهود والنصارى كم حذر المختار عن ذا ولعن فاعله كما روى أهل السنن بل قد نهى عن ارتفاع القبر وأن يزاد فيه فوق الشبر وكل قبر مشرف فقد أمر بأن يسوى هكذا صح الخبر وحذر الأمة عن إطرائه فغرهم إبليس باستجرائه فخالفوه جهرة وارتكبوا ما قد نهى عنه ولم يجتنبوا فانظر إليهم قد غلوا وزادوا ورفعوا بناءها وشادوا بالشيد والآجر والأحجار لا سيما في هذه الأعصار وبالقناديل عليها أوقدوا وكم لواء فوقها قد عقدوا ونصبوا الأعلام والرايات وافتتنوا بالأعظم الرفات بل نحروا في سواحها النحائر فعل أولي التسييب والبحائر والتمسوا الحاجات من موتاهم واتخذوا إلههم هواهم قد صادهم إبليس في فخاخه بل بعضهم قد صار من أفراخه يدعو إلى عبادة الأوثان بالمال والنفس وباللسان فليت شعري من أباح ذلك وأورط الأمة في المهالك فيا شديد الطول والإنعام إليك نشكو محنة الإسلام بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، تتعلق هذه الأبيات بفتنة القبور، وبعبادة الأموات، وبيان أن ذلك شرك، بل هو أول شرك حدث في العالم كما حكى الله تعالى عن قوم نوح في قوله تعالى: { وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } فإن هذه الأسماء أسماء رجال صالحين في قوم نوح ذكروا أنهم كانوا من الصالحين، ومن العباد والزهاد، ومن العلماء والمعلمين، وكان لهم أصحاب يحبونهم ويقدسونهم ويحترمونهم، ذُكر أنهم ماتوا في وقت متقارب، ولما ماتوا حزن عليهم تلامذتهم؛ حيث فقدوهم، وفقدوا علمهم، وعملهم، ومجالسهم التي كانوا يستفيدون منها، ولما رأى الشيطان منهم ذلك الحزن أوحى إلى تلامذتهم وأحبابهم أن يعكفوا على قبورهم؛ فقصدهم بذلك أن يتذكروهم هذا قبر فلان؛ فيعكفون حوله، ويتعبدون حوله، ويدعون الله، ويصلون في ذلك المكان، وفي تلك البقعة . ثم قال لهم انحتوا تماثيل على هياكلهم، صوروهم؛ فزين لهم الشيطان؛ فصوروهم، نحتوا لهم صورا إما من حجارة وإما من خشب، ونصبوها إلى المجالس التي كانوا يجلسون فيها التي كانوا يذكرون الله فيها، أو يتعبدون فيها، أو يعلمون فيها تذكرهم هذه صورة فلان إذا رأيناه نشطنا في العبادة، وأحببناها، واقتدينا به فيما كان يتعبد به، فلم يزالوا كذلك وهم يحترمونهم، وربما أنهم إذا دخلوا عليهم سلموا عليهم كأنهم أحياء، فلما مات أولئك الذين صوروهم؛ جاء الشيطان إلى أوليائهم وقال: إن آباءكم وأجدادكم يعرفون لهم مكانتهم، وأنهم مقربون عند الله؛ فتقربوا إليهم وادعوهم، فما زال بهم إلى أن دعوهم من دون الله، وعبدوهم، وفعلوا بهم ما يفعله المشركون المتأخرون من الذبح لهم، والهتاف بأسمائهم، والصلاة عندهم، ودعائهم من دون الله، والطواف بقبورهم، والتمسح بها والتبرك بتربتها، وسموها آلهتهم فقالوا { لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا } . وكأن هذه من جملة الآلهة مما يدل على أن لهم آلهة، ولكن هذه الخمسة هي أكثرها أكثرهم وأشهرها فأكثر ما يتعلقون عليها؛ فسموها آلهة ؛ لأن قلوبهم تألهها وتعظمها وتقدسها خوفا ورجاء وتوكلا ، فاعتبر هذا أول شرك حدث في بني آدم، وكذلك حدث أيضا في الأمم بعدهم، كل أمة لها من يَعبدون من أولئك الأموات، ونحوهم، وهكذا إلى هذه الأزمنة . سموها آلهة؛ لأن قلوبهم تألهها، وكذلك أيضا كل ما يُعبد ويُؤله من دون الله فإنه يسمى إلها، إلا أن مشركي هذه الأزمنة الذين يتسمون بأنهم من المسلمين ومن أهل هذه الملة المحمدية عملوا أعمال أولئك المشركين، ولكنهم لم يسموها آلهة، بل سموهم سادة وقادة وشفعاء وأولياء ، ولكن العمل واحد عملهم وعمل الأولين متفق في أنهم يدعونهم من دون الله، ويصرفون لهم خالص حق الله، فالشيطان أوقعهم في هذا الشرك وقال لهم لا تسموها آلهة؛ فتناقضوا القرآن، وتناقضوا السنة، سموهم سادة وقادة وأولياء وشفعاء ووسطاء وما أشبه ذلك؛ حتى تسلموا من أن ينكر عليكم .